دلالة ترتيب الجملة في خطب العصر الأموي
منهج وصفي تحليلي

إعـــداد

د.إيمان "محمد أمين" خضر الكيلاني

أستاذة اللسانيات الحديثة - قسم اللغة العربية

كلية العلوم والآداب - الجامعة الهاشمية

الزرقاء – الأردن

ملخص البحث

للجملة العربية اسمية وفعليةأطر بسيطة مألوفة،غير أن البلغاء من أهلها يعمدون إلى ما حقه التأخير فيقدمونه ،وإلى ما حقه التقديم فيؤخرونه . وما ذلك إلا من أجل غرض في المعنى ، فهذا الانحراف عن التراكيب المألوفة له دلالة خاصة ، لاتؤديه الجملة في تركيبها البسيط،فـ"العرب إذا أرادت العناية بشيء قدمته ."

وطريقة دراسة النحو التقليدية التي تحفل بالألفاظ وإعرابها ،كثيراً ماتغيّب القيمة الدلالية والجمالية للترتيب ،طالما أن الحركات الإعرابية مبررة .ومن هنا رأت الباحثة أن تتتبع هذه الظاهرة في خطب من عصر الاحتجاج ،العصر الأموي ؛لتربط بين المعنى والمبنى محاولة الكشف عن الدلالة الخاصة التي يقترحها سياقها الخطبة :التاريخي أواللغوي.وذلك في ضوء منهج وصفي تحليلي يوائم بين المستوى التركيبي والدلالي .

منهج البحث

يعتمد البحث في تحليله على أن للجملة العربيةالمنطوقة النواة، اسمية وفعلية ،أطراً تمثل فيها الجملة أدنى حد من الكلمات التي تعطي معنى يحسن السكوت عليه[1].فهي بنية سطحية هدفها الإخبار المحايد لاأكثر .وهذه الأطرهي:

أولاً:في الجملة الاسمية:

١_ م (اسم معرفة أوما يسد مسده من مصدرمؤول)+خـ (اسم نكرة)مثـل:(محمدٌ رسول).

٢- خـ (شبه جملة) + م (اسم نكرة) (في البيت صديقٌ) .

وتضيف الباحثة إليه الأنماط التالية :

٣- م (اسم معرفة) + خـ (اسم معرفة) (محمدٌ أخي) .

٤- م (اسم معرفة) + خـ (شبه جملة) (الصديق في البيت) .

٥- م (نكرة مخصصة) + خـ (نكرة أو شبه جملة) (طالبٌ مؤدّبٌ خير من عشرة)

٦- خـ (شبه جملة) + م (من الموصولية)" ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر"

ثانياً :في الجملة الفعلية (٢) :

١- فعل+ فا (اسم) (أوما يسد مسده ظاهراً أو مستتراً كما في فعل الأمر). حضر الضيف، كُلْ.

٢-فعل (متعدٍ) + فا (اسم) + مفـ (اسم) (أو اسم مقترن بحرف جر) . أخذ الطالبُ كتاباً .

٣- فعل (متعد) + فا (اسم)+ مفـ ١(اسم)+ مفـ ٢ (اسم) .كسوت الصغير ثوباً.

٤-فعل + مفـ (ض) + فا (اسم) . أكرمني ربّي .

وأضيف إليه:

٤ –ف (متعد)+فا(ض)+مف(ض)٠احترمناه.

هذه الأطر تمثل الجملة العربية النواة في أبسط صورها ،وأي انزياح عنها بتقديم ماحقه التأخير أوتأخير ماحقه التقديم يحولها من بنية بسيطة إلىبنية عميقة ،ذات دلالة خاصة ،يتوخاها المتكلم ويتحراها المتلقي.

ونعتمد أساساً لهذا المنهج الرياضي التحليلي ما رآه شيخ العربية عبد القاهر الجرجاني _رحمه الله _ إذ يقول: "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ؛وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها .....هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً ، وخطؤه إن كان خطأً ، إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنىً من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ماينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل منه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل ، إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه ."(٣)

ولا شك في أن الجرجاني سبق زمانه ، فبعد أن كان النحو منفصلاً فصلاً شبه تام عن البلاغة قبله ،استطاع أن يؤلف بين العلمين ليتكاملا ، باعتبار النحو تركيباً ، والبلاغة الدلالة الجمالية المترتبة عليه، موائماً بذلك بين المبنى والمعنى ،وهو أمر سبق فيه الغربيين بحوالي ألف سنة ، غير أنه لم يأت بعده من يدير دفة الدرس اللغوي بهذا الاتجاه نفسه ، فلم يكتب له أن يتطور أكثر وأن يشكل منهجاً يغير من مسيرة الدرس اللغوي عند العرب .

ولا يقف عند هذا الحد فيلتفت إلى التفاوت في القيمة الدلالية بين جملة وأخرى في معرض حديثه عن المجاز وتفاوت مستوياته ، وهو ما تحاول الباحثة أن تفعله في هذا البحث بأن تبين المستويات المختلفة لدلالة الجملة من خلال تحولاتها ، والفروق الدلالية بينها منطلقة

من أبسط صورة لها إلى أعقد صورة أرادها المتكلم بما يوافق حاله وحال المتلقي ، والسياق .يقول : "الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم ، والتأليف التأليف، والنسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل وتكثر المزية المزية ، حتى يفوق الشيء نظيره والمانس له درجات كثيرة ، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً ، ويتقدم منه الشيء الشيء ، ثم يزداد فضله ذلك ، ويترقى م لة فوق م لة ، ويعلو مرقباً بعد مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في العجز."(٤)

الجملة التحويلية الاسمية المحولة بالترتيب

تقديم الخبر على المبتدأ:-

"أما تقدم المبتدأ فلأن حق المنسوب أن يكون تابعاً للمنسوب إليه، وفرعاً له .وأما تقدم الخبر فلأنه محط الفائدة ، وهو المقصود من الجملة ، لأنك إنـّما ابتدأت بالاسم لغرض الإخبار عنه.والغرض وإن كان متأخراً في الوجود ، فهو متقدم في القصد . وهذا المذهب اختاره ابن جني وأبو حيان . وهو المختار عندي "(٥) .

"قال صاحب الكتاب : ويجوز تقديم الخبر على المبتدأ كقولك : تميمي أنا ، مشنوء من يشنؤك ،وكقوله تعالى : " سواءٌ محياهم ومماتهم " " وسواءٌ عليهم أأنذرتم أم لم تنذرهم" المعنى سواء عليهم الإنذار وعدمه ، وقد التزم تقديمه فيما وقع فيه المبتدأ نكرة والخبر ظرفاً ، وذلك قولك: في الدار رجل "(٦) .

لا شك أن في قول سيبويه هذا التفاتة دلالية تركيبية إلى أن الأعرف هو المبتدأ وإن تأخر،لكنّ تقديمه لا بد أن يكون من أجل غرض في المعنى . ويذكر في معرض حديثه عن تقديم المفعول به على فاعله :". . . فمن ثم كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً ، وهو عربي جيد كثير ، كأنـهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً

يهمانم ويعنيانم"[٧]

ويلتفت صاحب المفصل إلى دلالة تقديم الخبر "تميمي"على " أنا "هي : قائلاً "فمن يشنؤك مبتدأ، وقوله مشنوء الخبر وهو مقدم ، وكذلك:" تميمي أنا "، "أنا "مبتدأ أو خبر مقدم ، ألا ترى أن الفائدة المحكوم بـا إنما هي كونه تميمياً لا أنا المتكلم ، . . . " [٨] .

فالمعيار في الخبرية تحقق الفائدة وتضمنها الحكم الذي فيه زبدة الكلام .

" ويعد الترتيب من أبرز عناصر التحويل وأكثرها وضوحاً ، لأن المتكلم يعمد إلى مورفيم حقه التأخير فيما جاء عن العرب فيقدمه، أو إلى ما حقه التقديم فيؤخره طلباً لإظهار ترتيب المعاني في النفس . "[٩] " . . . لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذن نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناهُ ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق . كذلك كان عندهم نظيراً للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كلٍ حيث وضع علة تقتضي كونه هناك حتى لو وضع في مكان غيره لم يصح . والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل . . . وأي مساغ للشك في أن الألفاظ لا تستحق من حيث هي ألفاظٌ أن تنظم على وجه دون وجه، ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغاتٌ - دلالتُها لما كان شيء منها أحقَ بالتقديم من شـيء ، ولا يتصـوّر أن يجب فيها ترتيب ونظم "[١٠] .

ويقول في موضع آخر مشيراً إلى الدلالة الخاصة المترتبة على ترتيب الكلام : "... لا ُيتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه . ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني ، وتعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بـا آثارها. وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم

تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدمٌ للمعاني ، وتابعة لها ولاحقة بها ،وأن العلم بمواقع المعاني في النفس،علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".(١١)

ويفرد الجرجاني فصلاً للقول في الترتيب ملتفتاً إلى أبعاده البلاغية وأنه سمة من سمات العربية فيقول في مطلعه : " هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطُفُ لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك أن قُـدّم منه شيء وحـوّل اللفظ من مكان إلى مكان " (١٢). فالتقديم والتأخير عند علمائنا من السلف الصالح يكون لأمر يتعلق بالبنية الداخلية المرتبطة بالمعنى في ذهن المتكلم . (١٣)

ويلتفت الجرجاني اختلاف الفروق والوجوه الدلالية باختلاف التراكيب النحوية قائلاً :"وإذ عرفت أن مدار أمر "النظم " على معاني النحو ، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ، ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض ."(١٤)

بل إن ثمة علاقة قوية بين فهمنا للنص القرآني وتركيبه ، إذ " . . . لاشتراط التعمق في علم النحو للمجتهد في الأحكام الشرعية أثرٌ بليغ في استخراج تلك الأحكام ، لأن النحو يمنحه ملكة قوية في اجتهاده ، ويفتح له آفاقاً واسعة في استنباط الفروع من أصولها ، فهو علم مرتبط بتوجيه التركيب اللفظي وبيان دلالته التي تختلف من تركيب إلى آخر ، وكم من المسائل الشرعية يختلف الحكم فيها تبعاً لاختلاف التركيب ومدلوله " . (١٥)

ويلتفت فندريس إلى العلاقة بين الانزياح عن المألوف في تراكيب الجمل والمعنى الجديد الذي يريده العربي فيقول : " أما التغيير من حيث هو وسيلة للتعبير ووضع الكلمات وترتيبها في داخل الجملة . وترتيب الكلمات في كل اللغات يتجه نحو الاستقرار في داخل

الجملة وذلك بأن يفرض النحو على الكلمات ترتيباً لا يتغير بعينه في جميع الجمل التي من نوع واحد ، فإذا أراد العربي أن يعبر عن انفعاله حاول أن يغير من الترتيب المألوف للكلمات في داخل الجملة كعطف الاسم على الفعل ، أو الانتقال من الغائب إلى المخاطب ، أو تفكيك كتلة الجملة المتماسكة ، وفصم ارتباطها بغتة ، ثم جعل نصفها التالي يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الأول منها . "(١٦)

وفي خطبة أبي حمزة الخارجي بمكة يصف أصحابه من أبناء فرقته وجلهم من الشباب كما يذكر في الخطبة نفسها فيقول : ". . . قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نارهم، أنضاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم ورُكـَبهم. مُصفرّةٌ ألو انـُهم ، ناحلةٌ أجسامهم ، من كثرة الصيام،وطول القيام ، .....". (١٧)

ولو أمعنا النظر في الخطبة كلها لما وجدنا فيها مكاناً للجمل التوليدية البسيطة إلا في آخر الخطبة عندما يترحم على الأبدان في جملة واحدة، فالخطبة في معظمها تنبني على الجمل التوليدية ذات الدلالة العميقة ، والتي تتجاوز مجرد الأخبار المحايد وذلك مرجعه إلى : طبيعة الخطيب فهو خارجي ثائر ، وهو يحتاج إلى التأثير في جمهور المخاطبين ليستقطب منهم أتباعاً ، كما أن هذه الخطبة خاصةً ، تلقى على أهل مكة ممن في قلوبهم غصص من الخوارج وأفعالهم، فالخطيب يحتاج لأن يجمع أدوات التوكيد والتأثير كلها ؛ ليقنعهم بسلامة نيته ، وصحة سلوكه ، وأتباعه. ومن ضمن ذلك ترد الجملتان: مصفرةٌ ألوانهم ، ناحلةٌ أجسامهم. وأصل الجملة الأولى :

تلازم إضافة

ألـو انـهم مـصـفرّة

م (معرفة) + خـ نكرة.

غير أن المتكلم أراد معنىً لا يأتي بهذه الجملة الإخبارية المحايدة ، فجمهور المخاطبين

يتشككون في صدق إيمان أصحابه ، واستقامتهم ، فيقدم الخبر الذي الذي يتضمن التركيز على لون الصفرة الذي يعتمد عليه الخطيب في رسم صورة مؤثرة في المخاطب .

تلازم إضافة

مصفرةٌ ألوا نـهم

خـ (نكرة)+م (معرفة)

ومثل ذلك أصل الجملة الثانية :

تلازم إضافة

أجسامهم ناحلة

م (معرفة) +خـ (نكرة)

وللسبب السابق ذاته نراه يقدم الخبر ناحلةٌ أجسامه(مصفرةٌوجوههم)(ناحلةأجسامهم)

فهو يركز على الخبرين اللذين جاءا على صيغة اسم الفاعل من الاصفرار والنحول وهما صفتان لا تأتيان إلا من الكلال في الصيام نـهاراً ، والقيام ليلاً ، ليؤكد للمخاطبين صفات الإيمان وثباته المنعكسة على وجوههم ونتاج سوية سلوكهم؛ فترتبط الجملتان رغم انفصالهما تركيبياً واستقلالهما بالسبب ، فالاصفرار ، والنحول سببهما كثرة الصيام وأيضا طول القيام

تلازم إضافة تلازم إضافة تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

(مصفرةٌ وجوههم) (ناحلة أجسامهم) من كثرة الصيام وطول القيام

سببية تلازم عطف (خـ + م) (خـ + م)

فهي جملة تحويلية أكد فيهما الخبر بالتقديم ، وزيد فيها عنصر زيادة يفيد السببية في الجملتين .

وفي خطبة المهلب بن أبي صفرة مشجعاً جنوده على مواصلة حربم للخوارج يقول بعد أن يذكرهم بمواقفهم من علي بن أبي طالب ومن بعده " .... وعارٌ عليكم ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم (أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطؤوا حريمكم)."[١٨]

فهذه وإن طالت جملة واحدة فأصلها التوليدي في صورته البسيطة :

تلازم جر

(أن يغلبكم هؤلاء٠٠٠)عار عليكم

م (مصدر مؤول) + خـ (نكرة).

وطالت الجملة إذ أراد المتكلم أن يجمع إلى الخبر الواحد أخباراً أخرى ، كما أراد أن يخصص المتكلم الشيء الذي يغلبونم عليه

تلازم جر تلازم إضافة تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

(أن يغلبكم هؤلاء علـى فيئكم) + (عار عليكـم ونقـصٌ في أحسـابكم وأديـانـكم)

قيد مخصص تخصيص تلازم عطف قيد مخصص تلازم عطف

(ف + مفـ (ض) + فا) (قيد مخصص)

م + خـ

غير أن الخطيب يستثيرُ جنوده لينطلقوا إلى حرب فئة خارجة باغية ، عجز عنها من سبقه من القواد فقتلوا جميعاً وهم: علي بن أبي طالب ، ثم مسلم بن عبيس ، ثم عثمان بن عبد الله ، ثم حارثة بن بدر ، وهي فئة استشرى أمرها فلا بد أن يؤثر على جنوده ويحفزهم لا لقتالهم فحسب ، بل للاستبسال في ذلك . وأي شيء يمكن أن يثير فيهم نخوة العرب أكثر من كلمة العار المخصصين با، والنقص في أحسا بم وأديانم ؟ فيستعمل هذه الجملة المتراكمة المركبة ليحشد أكبر عدد من المعاني المترتبة على المباني وتتابعها ، ونراه فوق هذا يقدم موطن الاهتمام الذي يتضمن معنى التوبيخ والتقبيح لكل من لا يقاتلهم بأقصى ما يستطيع فيقدم موضع العار، والنقص الذي تأباه شخصية العربي ، فما بالك إن كان فارساً مجاهداً ؟ ونراه أيضا يعطف على المبتدأ بجملة في حكمه وهي" ويطؤوا حريمكم" لتشترك معها في الحكم ولينبنى عليها .

عارٌ عليكم ونقص في أحسا بكم وأديانكم (أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ،

ويطؤوا حريمكم)

(عارٌ عليكم ...) (أن يغلبكم هؤلاء ...)

خـ (نكرة) + م (مصدر مؤول) .

وقد وفق الخطيب في إنشاء هذه الجملة التي تبتدىء بـ" عارٌ عليكم " وتختتم بـ (يطؤوا حريمكم) ؛ لتحقق التوازن بين المبني والمبني عليه ولتكون موجعة مؤثرة في أولها ، وفي تاليها، وتقديم "عار" يخرج الجملة عن الحياد بوصمهم بالعار وإلصاقه بهم ،إذ المبتدأ النكرة نحواً واجب التأخير وخبره شبه الجملة واجب التقديم عليه ، ولا نجد مثل هذا الانزياح إلا قليلاً جداً في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :" ويل لكل همزة لمزة " و"ويلٌ للمصلين " حيث السياق سياق تويل ، أو لأن ويل و إن كانت نكرة بنية صارت علماً على مكان سحيق في جهنم ، ولعل تقديم "عار" على "عليكم "جاء لمعنى استكبار واستهوال العار النكرة الذي يكاد يصبح معرفة تلتصق بهم ، فكأن العار عارين ، فأن يغلبهم هؤلاء ،واسم الإشارة هنا للتحقير ،كأنه عاران ، إذ ليس فيه تخاذل وتراخ عن الجهاد فحسب ، وإنما هو إثم كبير شرعاً ، وعار دائم عرفاً وعادة ، فتجتمع سطوة مخالفة الدين والعقيدة إلى سطوة قدح العرف .

ومن أمثلة تقدم القيد الخصص ما ورد في البتراء :" قال أبو الحسن المدائني وغيره،ذكر ذلك عن مسلمة بن محارب وعن أبي بكر الهذلي قالا : قدم زيادٌ البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان وضم إليه خراسان وسجستان ، والفسق بالبصرة كثيرٌ فاشٍ ظاهر .

قالا: فخطب خطبة بتراء ، لم يحمد الله فيها ، ولم يـُصل على النبي ، وقال غيره : بل قال : الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً .

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغيّ الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، ينبت فيها الصغير ولا ينحاش عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ..."(١٩) ثم يتحدث عن مخالفاتم لشرع الله من الفسق والفساد وبناء

المواخير وانتشار الرذيلة بينهم إلى أن يقول : " ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونـهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً في مكانس الرِّيب.

حرامٌ علي الطعام والشرابُ حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً."[٢٠]

وأستبعد أن يكون قد بدأ الخطبة بالبسملة والحمد ، وإلاّ لما اشتهرت بالبتراء ، على اعتبار أن كل عمل لم يبدأ باسم الله فهو أبتر ، كما إن الرواية بالبتر مسندة إلى رواة ، أما بالبسملة والحمد فغير مسندة حتى إلى راو واحد . كما أن الدعاء الذي تضمنته جملة الحمد" اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً " . لا تتناسب وموضوع الخطبة الذي كان حرباً على الفساد ، فمضمونـها بلاء لا نعمة . ولعل الخطيب ابتدأ مباشرة بلب الموضوع إذ الفساد المستشري وعلاجه والحمل على أصحابه يصبح أولى من الالتزام بتطبيق السنة، وقد عطلت أحكام الله في الكبائر ، ولله المثل الأعلى في سورة التوبة " التي بدأت مباشرة من الاستعاذة إلى السورة دون بسملة ؛لما تتناوله من الحديث في أمرٍ جلل. ولعل زياداً فعل ذلك لما يستشعره في نفسه من عظم الخطب ، وليعلم المخاطبون أيضاً أنه جاء لمهمة محددة هو مكافحة الفساد والفاسدين، وأن لا هوادة عنده في الأمر، فيوقع في قلوبهم الرعب المرتبط بالوعد والوعيد ، فيقحمهم مباشرة ويأخذهم بغتة بذنوبهم وما يترتب عليها من عقاب . فتجده من البدء يستخدم جملاً تحويلية مؤكدة يكثر فيها من الاستفهام الذي يخرج إلى معنى التوبيخ والتقريع ، ويقدم الخبر موطن الفائدة ، والذي فيه الحكم ،فتأتي جملته : حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وحرقاً وهو يتحدث عن تلك المواخير التي ينتشر فيها الفساد وتنتهك فيها الحرمات .

وأصل الجملة التوليدي : الطعام والشراب حرامٌ عليّ

م (معرفة) + خـ (نكرة)

هذا فيما لو أراد المتكلم أن يحرم الطعام والشراب على نفسه مطلقاً وهو في حال استرخاء وثبات ، ويطلق الجملةعلىخالي ذهن لا يتشكك في كلامه. لكن المتكلم أراد أن

يبين للمخاطبين تصميمه وإصراره على أن يهدم كل (مكانس الريب) في زمن فائق حتى أنه لن يمارس حقاً غريزياً يستوجبه البقاء على قيد الحياة ، الطعام ، بل والشراب أيضاً ،بل سيجعله محرماً ، وهو الحلال قبل أن ينجز مهمته ويقوض الفساد في البصرة ، فقدم الحكم ، وغاية الحكم وهو تقويضها إلى درجة تسويتها بالأرض .

قيد مخصص قيد مخصص

تلازم جر تلازم عطف تلازم جر

حرامٌ علي الطعام والشراب (حتى أسويها بالأرض)

أنتهاء غاية

خـ (نكرة) + م (معرفة)

وأراد المتكلم تأكيد معنى تسويتها بالأرض ، ثم تبيان نوع هذه التسوية فأدخل وحدة وظيفية جديد جعلها تمييزاً وعطف عليه بآخر مشاركاً له في الحكم .

قيد مخصص

تلازم جر تلازم عطف تلازم جر تلازم عطف

حرام علي الطعام والشراب (حتى أسويها بالأرض) هدماً وإحراقاً

ع. انتهاء غاية (ف + مفـ (ض) + فا (ض)

انتهاء غاية تمييز

خـ (نكرة) + م

فهي جملة تحويلية قدم فيها الخبر للعناية والأهميةوهي إطلاق حكم وعهد يشبه القسم، وهذا يوحي بسرعة قضائه على الفساد بالقدر الذي يستطيع معه البر بعهده ،كما إن ذلك يشير إلى أن المسألة له مسألة حياة أو موت ، وقيد الخبر فيها بغاية زمانية فعلية ، فدخلها عنصر زيادة، القيد المخصص ، والتمييز الذي جاء ليميز نوع التسوية .

وفي خطبة لعتبة بن أبي سفيان وقد وجه ابن أبي الأعور السلمي إلى مصر فمنعوه الخراج ، فقدم عليهم عتبة فقام خطيباً فيهم يعظهم بالطاعة،ويتوعدهم إن أصروا علىعصيانم إلى أن قال: " إنّ البيعة مشايعة،فلنا عليكمُ الطاعة،ولكم علينا العدل، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه" . (٢١)

والشاهد في الجملتين : فلنا عليكم الطاعة ، ولكم علينا العدل .

تلازم جر تلازم جر

فالأصل التوليدي للأولى : الطاعة لـنـا عليكم

م (معرفة) + خـ (شبه جملة) +(قيد مخصص)

وقد يتبادر إلى الأذهان بأن (عليكم) هي الخبر ، و(لنا) القيد المخصص غير أن هذا غير صحيح إذا نظرنا إلى السياق وما يقتضيه المعنى، فالأهم للمتكلم هوتقريرحقيقة المستحق للطاعة،وهي(لنا) الساسة والولاة ، ودليل ذلك أنه لما أراد أن يؤكد هذه الفكرة قدم (لنا) في الجملة التحويلية أولاً ، ثم قدم (عليكم) على المبتدأ .

فطرفا المسألة اللذان يعنيان المتكلم " لنا " بالدرجة الأولى ، ثم يعقبه في الأهمية القيد المخصص " عليكم " .

لنـــا عليــــكم الطـــاعـــــة

خـ (شبه جملة)+ قيد مخصص +م (معرفة)

فهي جملة تحويلية قدم فيها الخبر ، والقيد المخصص للمبتدأ ، على المبتدأ ، إذ ليست المشكلة في الطاعة بقدر لمن تكون الطاعة ، وعلى مـَـنْ تكون . فطرفا المسألة (نا) المتكلمين ، و(كمُ) المخاطبين، إذ لب القضية وجوهر المشكلة تكمن في تحديد من تجب عليهم الطاعة ،وهم الرعية ، ومن المستحق لها والجدير با وهو هنا "نا" المتكلمين العائدة على الأمويين .

ولعله في خطبة أخرى له في أهل مصر ما يؤكد ما ذهبنا إليه إذ يقول لهم : " فلا

تمـدّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنا تنقطع من دوننا، ورب متمن حتـفُه في أمنيتـه ، اقبلونا ما قبلنا العافية منكم وقبلناها منكم. . . " . (٢٢)

تقديم الزمان والمكان على الخبر :

وفي خطبة عبد الله بن الأهتم بين يدي عمر بن عبد العزيز مستعرضاً تاريخ العرب من الجاهلية إلى عهد عمر بن عبد العزيز يقول واصفاً حال العرب قبل الإسلام:" أما بعد ،فإن الله خلق الخلقَ غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم ،والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون . والعربُ بشر تلك المنازل ، أهل الوبر وأهل المدر،تحتاز دونـهم طيـبات الدنيا ورفاهة عيشها (٢٣)الجملة موضع الشاهد ، "الناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون" ، فأصل هذه الجملة التوليدي :

تلازم جر تلازم عطف

الناسُ مختلفون في المنازل والرأي يومئذ

م + خـ (قيد مخصص مكاني) + ظرف زمان

غير أن المتكلم أراد أن يقدم موضع عنايته ، إذ الـمُخـَتلفُ فيه عنده أهم من مجرد الاختلاف، فقد اختار من خلافات العرب في الجاهلية أبرزها و أخطرها ، ثم قرنـها بزمانـها وهو العصر الجاهلي ، واختار" يومئذ" لتدل على أنا على اختلاف أزماننا ، زمن واحد ضيق سمته واحدة . وأراد أن يهتم بالزمان أكثر فقدمه على سبب الاختلاف والخلاف.

تلازم جر تلازم عطف

الناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون

م + (قيد زماني) (قيد مكاني) + خـ

فتقديم "يومئذ" من شأنه أن يعود بم إلى زمن الجاهلية ، و أن يقحمهم في ذاك الزمان وملابساته الاجتماعية والنفسية والعقدية بما فيها من شر وظلم وأثرة وغيرها ،حتى لكأنم يعيشونه واقعاً ، مستحضراً وضع الناس فيه من تفاوت منازلهم وآرائهم فلا شيء يجمعهم .

الجملة الفعلية المحولة بالترتيب

١- تقديم الفاعل :

الأصل في الجملة العربية الفعلية التوليدية أن يتقدم الفعل على الفاعل ، والفاعل على المفعول به ، لكن قد ينـزاح المتكلم عن هذا المألوف لغرض في المعنى فيقدم الفاعل على فعله ، كأن يولي اهتمامه بالدرجة الأولى للفاعل أكثر من الحدث .

وتقديم الفاعل " مسألة خلافية ، فقد جوّز الكوفيون أن يتقدم الفاعل على فعله ويبقى فاعلاً له ،في حين لا يجيز البصريون ذلك ويعربونه مبتدأ ،والجملة الفعلية بعده خبر لـه". (٢٤)

" فنلاحظ أن النحاة لم يعيروا أثر الانفعال في العبارة اهتماماً ملحوظاً ، بل حصروا نظرتـهم في اللغة المنطقية ، وفي (منطقية) ما يظهر من الأساليب الانفعالية . وهذا ما جعلهم – فيما نظن – يفرقون بين قولهم قام زيد ، وزيد قام ، تفريقاً أشد من الحقيقة إذ جعلوا الجملة الأولى فعلاً وفاعلاً، والثانية مبتدأ وخبراً .

ولو عرفوا أن العرب تقدم وتؤخر في مثل هذا الترتيب للتعبير عن مختلف المعاني والمقاصد ، وعرفوا أن اللغة تتجه دائماً في ترتيب كلماتـها داخل الجملة إلى الاستقرار ، فقولهم :قام زيد ، هو الترتيب المألوف عندهم . فلما قالوا : زيدٌ قام فقد أخرّوا المتقدم ، فلا بد أن تكون مخالفة الترتيب لمألوف عندهم لسبب . وهو – فيما يـبدو – أن المتكلم يريد أن يؤكد أن زيداً دون غيره هو الذي اتصف بصفة القيام . ولهذا بدأ بكلمة زيد . فما أجدر

النحاة أن يعربوا : زيد قام ، زيدٌ فاعل مقدم ، وقام فعل مؤخر ، حتى يشعروا بأن الفاعل تقدم عن موضعه لسبب ." (٢٥)

وعلى أي حال فإن هذا لا ينفي مطلقاً اهتمام سيبويه والفراء من النحاة ،وبعض البلاغيين والمفسرين مثل : شيخ العربية عبد القاهر الجرجاني ، وأبو حيان الأندلسي ، والفخر الرازي ، والزمخشري والطيبي ،وغيرهم _بالمعنى ، والقيمة الدلالية والانفعالية في مواطن ليست بالقليلة نجدها متناثرة في مؤلفاتم الفذة ، وقد استشهدنا ببعض منها في بحثنا هذا ، فأولئك الأبرار سبقوا زمانم وتركوا لنا إرثاً عظيماً وقد آن الأوان أن نضيف إليه ما ما تقتضيه حاجة العربية الشريفة في هذا الزمان مما يقربا إلى أبنائها ويسهلها عليهم ، وأن نؤلف من متناثرهم نظرية متكاملة تنبع من ذات العربية مع الإفادة من اللسانيات الحديثة ، دون إفراط أو تفريط .

ويشير محمد فضل عباس إلى دلالة تقديم الفاعل على فعله إلاّ أنه لايستطيع التملص من سلطة النحو البصري على تفكيره اللغوي فعدّمن طرق التوكيد " تقديم الفاعل من حيث المعنى : وإنما قلنا من حيث المعنى ، لأن الفاعل كما علمت في النحو لا يتقدم على فعله " فإذا تقدم على الفعل أعربوه مبتدأ كما تقول :" الشمس طلعت ، والبلاغيون لا يختلفون مع النحويين في هذا الإعراب ، فـ " الشمس " مبتدأ عند الجميع ، إلا أن البلاغيين لا يرون بأساً من أن يعتبروا أن هذه الجملة قدم فيها الفاعل في المعنى الذي هو الشمس ، وإنما دل ذلك على التأكيد ؛ لأن فيه تكرير الإسناد ، ألا ترى أن كلمة الشمس هنا ذكرت مرتين ، ذكرت أولاً اسماً ظاهراً ، ذكرت ثانياً ضميراً مستتراً ". (٢٦)

" وفي رأي البصريين تكلف ، إذ فيه تقدير فاعل للفعل يعود على المبتدأ ، وقد كان أولى أن يكون الفاعل هو فاعله دون لُجوءٍ إلى تقدير فعل ، ثم تقدير جملة فعلية تسد مسد الفاعل المقدم (المبتدأ عندهم) .

وليتهم كانوا أكثر وصفية وواقعية في إعرابـهم الفاعل مقدماً كما كانوا في تجويزهم – بلا خلاف – تقديم المفعول على فعله لكن الذي أوقعهم في هذا التناقض جريهم وراء المعنى والحركة الإعرابية بخاصة ، ففي حال تقدم الاسم المنصوب لامشكلة إذ يفترض أن يُحْمَلَ على أم باب المنصوبات وهو المفعول به ، وحيث إن الفعل مذكور ،فإن عمله يكون أقوى مما لوقدّر له فعلٌ مضمرٌ يكون مفسراً له ، كما أن لا مشكلة أيضاً لعدم اجتماع معمولين لعاملٍ واحد كما في حال تقدم الفاعل .

- أماحين يتقدم الفاعل وهو اسم مرفوع فإنه يلتبس بالمبتدأ،إذ كلاهما اسم،وكلاهما مرفوع،فإذا نظر إليه علىأنه فاعلٌ كان لابد من اجتماع فاعلين لفعل واحد،وهذا ماترفضه قاعدتـهم ". (٢٧)

وترد في خطب العصر الأموي بعض الجمل التي يتقدم فيها الفاعل على فعله،وهي ليست بالكثيرة . ومن ذلك ما ورد في خطبة زياد بن أبيه البتراء من قوله :

" أليس كل امرىء منكم يذب عن سفيهه " (٢٨)

وأصل هذه الجملة التوليدي :

تلازم إضافة تلازم جر تلازم إضافة

يذب كل امرىء عـن سفيهه

ف + فا + قيد مخصص

غير أن هذه الجملة تفيد التعميم ؛فكل امرىء يذب عن سفيهه ، وواقع الأمر أنه ليس كذلك ، وإنما هم أهل البصرة خاصة كل امرىء منهم يفعل ذلك ، فأدخل المتكلم عنصر زيادة هو القيد المخصص للفاعل . وقد يتساءل سائل لماذا عددنا القيد المخصص (عن سفيهه) من الجملة التوليدية ، " ومنكم " دخيلاً مزيداً لغرض في المعنى . والجواب أن

القيد المخصص (عن سفيهه) مخصص لبؤرة الجملة (الفعل) ، لا يتم المعنى إلا به ، أما « منكم » فقيد مخصص للفاعل .

تلازم إضافة تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

يذب كل امرىء مـنكم عـن سـفيهه

ف + فا + قيد مخصص

وبعد أن خص كل امرىء منهم بهذا الفعل المشين ، قدم الفاعل لأهميته إذ هو مناط الفعل والمسؤول عنه

تلازم إضافة تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

كل امرىء مـنكم يذب عـن سـفيهه

فا (قيد مخصص) + ف + (قيد مخصص)

ثم أراد أن يلقي عليهم بالحجة ، ويقرّعهم جملةً على ما يقترفون، فأدخل عُنصر الاستفهام بالنفي .

تلازم إضافة تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

أليس كل امرىء منكم يذب عن سفيهه

ع. استفهام + + (فا (قيد مخصص) + ف + (قيد مخصص)

ومثل ذلك أيضاً ما ورد في الخطبة السابقة نفسها :

" ألم تكن منكم نـهاةٌ تمنع الغواه عن دلج الليل وغارة النهار ؟! (٢٩)

وأصل الجملة التوليدي:

تلازم عطف

تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

تمنع ناةٌ الغواة عن دلج اللـيل وغـارة النهار

ف + فا + مفـ + (قيد مخصص)

هذا الأصل الذي ينبغي أن يكون ،لكن الواقع غير ذلك ، وأراد المتكلم أن ، يخص النهاة " منهم " دون غيرهم ، إذ عليهم تقع مسؤولية التصدي للفساد والمفسدين

تلازم عطف

تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

تمنع نــهاة منكم الغواة عن دلج اللــيل وغارة النهار

ف + فــا + مفـ + قيد مخصص

قيد مخصص

ثم أراد تعريفهم بالاستفهام عن كون منفي لعدم وجود نــهاة (أي نــهاة وإن كانوا قلة) يمنعون الغواة (بالتعريف لاستغراقهم جميعاً) عن الفساد ليلاً ونــهاراً . وتقضي نواميس العربية حين دخول كان على جملة فعلية أن يتقدم الفاعل ، ولعل ذلك لأن الفاعل لا يكون في هذه الجمل إلا موضع العناية والاهتمام

تلازم عطف

تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

ألم تكن نــهاة منكم تمنع الغواة عن دلج اللــيل وغارة النهار

ع. استفهام + ع. زمان (فا (قيد مخصص) + ف + مفـ + (قيد مخصص)

إذ تغيير الوضع في مجتمع البصرة كان ينبغي أن ينبع منه لامن خارجه ، و هذا أثار سخط زياد ،حيث انعدام النهاة عن الباطل من داخل المجتمع نفسه سبب مباشر للوم ؛ فجاء الاستفهام تقريعاً وتوعداً ،وهذا أيضاً ما جعله يعد حلماءهم مع جهالهم ، فسكوتهم عنهم تقصير وبالتالي كان مساهمة في زيادة الفساد وانتشاره أكبر .

ثم أراد أن يؤكد أكثر القيد المخصص للفاعل (منكم) فقدمه حتى على الفاعل

تلازم عطف

تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة تلازم جر تلازم إضافة تلازم إضافة

ألم تكن منكم نـهاة تمنع الغواة عن دلج اللـيل وغارة النهار

ع. استفهام + + ع. زمان (قيد مخصص) + فا + ف + مفـ + (قيد مخصص)

وفي خطبة لأبي حمزة الخارجي بمكة ترد الجملة :

" وكم من كف بانت عن معصمها " . (٣٠)

وذلك في معرض وصفه لأتباعه من الشباب الذين تتخطفهم المنايا في سبيل الله – من جهة نظره – ليقنع أهل مكة بصحة منهجه وفكره ، وصدق دعوته.

وأصل الجملة التوليدية :

تلازم جر تلازم إضافة

بانت كف عن معصمها

ف +فا + (قيد مخصص)

غير أن هذه جملة عامة ترسم صورة كف انفصلت عن معصمها ، ثم أراد أن يصوب الأنظار إلى موطن الألم في الصورة و هي الكف

تلازم جر تلازم إضافة

كفٌ بانت عن معصمها

فا + ف + (قيد مخصص)

ثم أراد تكثير تلك الأكف ، و يلحظ أن كم تقتضي دائماً في العربية تقديم الفاعل على فعله لأهميته إذ هو موطن التكثير أو التكثيف و هما صفتان لا تكونان إلا لاسم، و يقتضي هذا الاسم بعد (كم) الخبرية الجر

تلازم جر تلازم اضافة

كم كفٍ بانت عن معصمها

ع. تكثير (فا + ف + (قيد مخصص)

ثم أراد توكيد الفاعل (كف) و تكثيرها فأدخل (من) لتزيد معنى الكثرة

تلازم جر تلازم جر تلازم اضافة

كم من كفٍ بانت عن معصمها

ع. تكثير + (فا + ف + (قيد مخصص))

فهي جملة تحويلية فعلية حولت بزيادة عنصر التكثير ، و أكد فيها الفاعل بالتقديم و عنصر التوكيد.إذ الكف هي العضو الأول الذي يفعل ، فهو يمثل كسب الإنسان لجوارحه العاملة .

وفي الخطبة البتراء أيضاً ترد الجملة :

" إني رايتُ آخِرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صَلُح به أوّله "

وأصل هذه الجملة التوليدي :

تلازم صلة

تلازم إضافة تلام بدل تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

يصلح آخرُ هـذا الأمر بـما (صلح بـه أولـه)

(ف +قيد مخصص + فـا))

ف + فا + (قيد مخصص)

هذه الحقيقة المستقرة في ذهنه ، وهو أن صلاح آخر الأمر يكون بالطريقة التي صلح بـها أوله .

ثم أراد توكيد آخر الأمر (وهو حالهم الذي هم عليه من فساد ، فقد الفاعل .

تلازم صلة

تلازم إضافة تلازم بدل تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

آخـرُ هـذا الأمر يصلح بمـا صلح بـه أولـه

(ف +قيد مخصص + فـا))

فا + ف + قيد مخصص

لكنه أراد ألا يفهم من جملته مجرد الإخبار البسيط ، مع العناية بتقديم الفاعل ، بل أراد أن يؤكد ذلك فاستعمل الحصر ، ولا يخفي ما في هذا التوكيد من تضمن معنى التهديد بالجهاد وسل السيوف ، وهو ما صرح به في مواطن أخر في الخطبة

تلازم صلة

تلازم إضافة تلازم بدل تلازم جر تلازم جر تلازم إضافة

آخر هـذا الأمـر لا يصلح إلا بما (صلح بـه أولـه)

(ف +قيد مخصص + فـا))

فا + (ف) + (قيد مخصص)

ثم اراد أن يبين قناعته وما يغلب على ظنه ، فأدخل عنصر الرؤية رأيت . ثم أراد أن يؤكد هذه الرؤية فأدخل إن التي اقتضت الاتصال بياء المتكلم ، وهذا يعني أنه هو المخول خاصة بـهذا الأمر ، وصاحب الرأي فيه كما اقتضت رأيت نصب الفاعل لدخولها عليه

تلازم صلة

تلازم إضافة تلازم بدل تلازم جر تلازم إضافة

إني رأيتُ آخر هـذا الأمر لا يصلح إلا بما (صلح بـه أولـه)

(ف + قيد مخصص+ فا)

(ض) + ع٠رؤية (فا + N (ف) V (قيد مخصص)

حصر

واستعمل الخطيب هنا التلميح دون التصريح ، ليوقع الرهبة في المتلقين بأن يدع لهم فرصة للعودة بذاكرتهم التاريخية إلى الماضي ، إلى أوله ، ومايمكن أن توجيه هذه الصيغة من معاملتهم معاملة الكفرة في عصر النبوة ، أو معاملة المرتدين في خلافة أبي بكر ، بمحاربتهم بالسيف بلا هوادة ، فإن قوتل المرتدون لمنعهم الزكاة ، فزياد بن أبيه سيقاتلهم لفسقهم بارتكاب الكبائر ، وهذا ما يبرر دخول" إن" المقترنة بضمير المتكلم ، و"رأى " المقترنة بـ"تاء" الفاعل ، والمتكلم هو ذاته القائد العسكري ، وهم يعرفون سطوته وصولته ؛ فالجملة تشكل قراراً حاسماً في مسألة ما عادت قابلة للمشورة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهي جملة واحدة كفيلة بأن تفتح أبواباً مغلقة لمعان ودروس وعبر كثيرة، أغنت الخطيب عن كثرة الكلام ، وأدت دوراً دلالياً بلا حدود ، وجزمت بحتمية الحرب عليهم وفجاءتا وسرعة حسمها .

٢- تقديم المفعول به ، والقيد المخصص :

وتقديم المفعول به على فاعله أو على فعله وفاعله معاً من الانزياحات الجمالية في لغة العرب ، في أمثالهم وخطبهم وشعرهم قبل الإسلام ، وجاء القرآن الكريم مؤكداً استعمالاً -جمالية هذا الانزياح ودوره في توجيه المعنى توجيهاً دلالياً خاصاً إما ترغيباً أو ترهيباً ، أو تخصيصاً أو توعداً أو تقريعاً أو استهزاءاً أو توبيخاً أو تعظيماً . أو غير ذلك وفق السياق الخاص بكل انزياح في الجملة القرآنية .

وفي خطب العصر الأموي تمتد هذه الظاهرة وتستمر ، فيعمد الخطيب إلى تقديم المفعول به لغاية في المعنى.يقول سيبويه تعليقاً على تقديم المفعول به على الفاعل في مثل ضرب زيداً عبد الله : " إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثم كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدماً وهو عربي جيّد كثير ، كأنـهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانوا جميعاً

يهمانـهم ويعنيانـهم ." (٣١)

ويلتفت السيوطي إلى أهمية تقديم المفعول به فيقول :" وإذا قدم المفعول أفاد الاختصاص عند الجمهور نحو :" إياك نعبد ، وإياك نستعين ، أي لا غيرك ،" بل الله فاعبد " (٣٢) أي لا غيره" (٣٣)

يقول القرطبي :" وإن قيل لم قُدمَ المفعول على الفعل ، قيل له : قُدمَ اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم ، يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعني ، فقال له الأخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم ، وأيضاً لئلا يتقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . . . وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك ." (٣٤)

وترد خطبة للنعمان بن البشير بالكوفة تنبني على تقدم المفعول به على الفعل والفاعل. يقول:" إني والله ما وجدتُ مثلي ومثلكم إلاّ الضبع والثعلب ، أتيا الضب في جُحره، فقالا: أبا حِسْل ، قال : أجبتكما ؟ قالا : جئناك نختصم ؛ قال : في بيته ُيؤتى الحكم.قالت الضبع: فتحتُ عيني ؛ قال : فِعَل النساءِ فعلتِ ؛ قالت : فلقطتُ تمرة ؛ قال : حُلواً اجتنيت؛ قالت : فاختطفها ثُعالة ، قال : لنفسه بغى الخير ، قالت فلطمته لطمة ، قال : حقاً قضيت ، قالت : فلطمني أخرى ، قال : كان حُرّاً فانتصر ؛ قالت فاقض بيننا ؛ قال : حَدث امرأة حديثين، فإن أبت فأرْبع ، أي اسكت " . (٣٥)

وهذه الخطبة تكاد تكون كلها انزياحاً عن المألوف ، فالسياق سياق توبيخ وتقريع من قائد لأتباعه، ومع ذلك يسوق تقريعه هذا على شكل حكاية . ولا يعلق الخطيب بعدها عليها ؛ وإنما يكتفي بالمغزى الذي يستشفه المخاطب منها . ونلحظ أن القاضي هنا ليس الأسد ولا الثعلب كما هو مألوف ، وإنما الضّب ، ونجد الثعلب هو الخصم الأقوى الغاشم الذي لا يكتفي بأن يأخذ ما في يد غيره ؛وإنما يفرط عليه فيعاقبه حين يحاول أن يسترد حقه . والضبع هي صاحب الحق الذي يسعى من أجل التقاط رزقه ،ثم يتصرف بتعقل فيحاول حين يعجز عن مواجهة خصمه والتغلب عليه – على صغر حجمه - أن يحتكم إلى القضاء

الذي يفترض فيه أن يحكم بالعدل . لكن الخطل خالط حكمة الضبع حين لم تحسن اختيار الحكم ، فلجأت إلى أرذل كائنات الصحراء، الضّب الذي يراوغ في حكمه ويؤدي دور المبرر لكل فعل و ردة فعل ، فكل شيء مبرر حتى السرقة ، والفرط ، فلا يستطيع أن يرى الحقيقة بعينه . ويلحظ أن الجمل التي جاءت على لسان الضبع وهي تمثل الأفعال وردود الأفعال من الثعلب كلها جاء فعليه توليدية ، إذ المقام مقام سرد ، والجمل هي أحكام الضب ، وهي في واقع الأمر ليست سوى مبررات مطاطة لا تعطي حقاً ولا تأخذ باطلاً،جاءت كلها مبنية على تقديم الركن الثالث من الجمل، وهي أيضاً جمل فعلية ، فإن كانت الأفعال لازمة ، قدّم قيدها المخصص ، وإن كانت الأفعال متعدية قدم المفعول به . وهذا التقديم إنما جاء ليؤكد المراوغة في طبع الضب ، فالمبرر للفعل يسبق الفعل نفسه وفاعله الذي أوى إليه ، سواء كان الفعل حقاً أو باطلاً ، من الضبع أو من الثعلب ، ولذلك انتهت الحكاية بعد أن صرحت الضبع بطلبها للقضاء بينهما – بجملة أيضاً انزاحت عن كل جمل الضب السابقة بناءً ، فظهرت الجملة التوليدية الفعلية التي تقدر قناعة يؤمن بـهـا ، ويمارسها وهي : حدّث امرأة حديثين . ثم اشترط رد فعل معاكس منها بأن ترفض ، وافترض حلاً له أيضاً وهو :" اربع " أي اسكت . والسكوت هنا لا شك نتيجة حتمية لمن يحرص على تمييع الأمور وإضاعة الحقيقة، وتعطيلها ، وهي وإن كانت ليست بالحكمة ، إلا أنـها عند الضب الحكمة ،كيف لا وهو الذي يرى في نفسه الحكم،وفي جحُره بيتاً للحكمة ؟ وهو أبعد ما يكون عن الحكمة فهو يسارع إلى إطلاق الحكم بعد كل جملة حدث سردية ، والأصل في القاضي ألا يحرك ساكناً قبل أن ينجز المشتكي قضيته .

ولا شك في أن الخطيب أبدع في حكايته هذه والتي قد تكون من القصص الشعبي العربي أقوال الضب كلها أمثال عربية باتت الأقوى حيلةً ، إلا أنه يصوغها بلغة حية ودقيقة بحيث تغنيه عن إطالة القول والشرح في حاله وحال أتباعه ، فهو الضبع صاحبة الحق والتي لا تحسن اختيار اختيارالحكم،والحكم (الضب)هم أتباعه الذين يتذبذبون بينه وبين خصمه الـماكر القوي(الثعلب) صاحب اليد الأقوى ، ويتوقع النتيجة المبنية على مثل هذه العلاقة

الثلاثية غير المحسومة ، والتي غالباً سيترتب عليها ضياع الحق وصاحبه،وانتصار العدو و فوزه بغنيمته. و قد نتساءل لماذا رضي الثعلب بأن يرافق الضبع إلى الضب؛ليحكم بينهما على رغم من قدرته على الفوز بالغنيمة دون حكم أو قضاء ؟ أقول :

أولاً : لأن الثعلب (الماكر القوي) لا تغيب عنه حال الضب وأحكامه.

ثانياً : لأنه يريد أن يأخذ شرعية لفعله ، فتصبح سرقته حقاً ؛ فلا تستطيع الضبع بعد ذلك أن

تطالبه بحقها ، بل ستيأس وترضخ إلى حكم الغاب (صاحب الحق الأقوى).

- أماحين قالا له :

جئناك (نختصم)

ف + فا + مفـ + (ف + فا)

حالية

جاءت الجملة فعلية تحويلية دخلها عنصر الزيادة (نختصم) ليدل على حاليهما ، واستخدم الفعل المضارع للدلالة على حال فعل المجيء ليدل على الاستمرارية .

رد الضب :

في بيته يؤتى الحكم

وأصل هذه الجملة التوليدي :

يأتي (فاعل) الحكم

ف+فا ∅ + مفـ

ولأن الفاعل أعرف من أن يذكر عرفه المفعول به (الحكم) فلا بد أن يكون بدون أدنى شك (خصمان)أو صاحب حق ، أو مدعٍ؛ لذلك حذفه المتكلم ليصب اهتمامه على

الفعل والمفعول به .

واقتضت نواميس العربية في هذا التركيب أن يأخذ المفعول به حركة الرفع

يــؤتــى الحــكم

ف + فا ∅ + مفـ

غير أن الضب الذي اعتاد أن يعيش في ظلمة الجحر ، فلا يرى إلا ظلاماً يرى جحره بيتاً ، ونفسه حكماً ، فيدخل القيد المخصص (في بيته) ثم يقدمه ، وضيق نظر الضب وعمى بصيرته يوهمانه أن جحره بيتاً ، ويراه مكاناً لائقاً بالحكم .

في بيته يؤتى الحكم

(قيد مخصص) (ف + فا ∅ + مفـ)

قالت الضبع :

فتحت عيني

ف + فا ∅ + مفـ

جملة توليدية فعلية بسيطة هدفها الإخبار المحايد .

رد الضب :

فعل النساء فعلت

مفـ + ف + فا

جملة فعلية تحويلية قدم فيها المفعول به ليبرر فعلها .

قالت :

فــلــقطــت تمــرة

ع . ربط (ف + فا + مفـ)

جملة توليدية فعلية بسيطة هدفها الإخبار المحايد

رد الضب :

حلواً اجتـنيت

مفـ + ف + فا

جملة توليدية فعلية قدم فيها المفعول به للعناية ،والغاية الآنفة .

قالت :

فـاختـطفـها ثـعـالـة

ع . ربط (ف + مفـ (ض) + فا)

جملة توليدية فعلية هدفها الإخبار المحايد اقتضاه سرد الأحداث بصدق ،ودون محاولة للتأثير على المخاطب .

رد الضب : لنفسه بغى الخير

وأصل الجملة التوليدي :

بغى ثعالة الخـير

ف + فا + مفـ

ومن سنن العربية الاستغناء عن المذكور سابقاً بالضمير المستتر أو الظاهر .

أصبحت الجملة :

بغى الخير

ف + فا (ض) + مفـ

ولما كان من شأن الضب التبرير لكل سلوك من الطرفين ، كان لا بد من زيادة قيد مخصص لبغى الخير ألا وهو النفس ، ولأن حب النفس عنده مبرر كافٍ لسرقة السارق يقدمه

لنفـسـه بغـى الخـير

(قيد مخصص) (ف + فا (ض) مفـ)

قالت الضبع :

فـ ا ـ طمـُ ته ا ـ ط ـ مة

ع . ربط (ف + فا + مفـ)

جملة توليدية فعلية إخبارية محايدة .

رد الضب :

حقـ اً قضيـ ت

مفـ + ف + فا

جملة تحويلية فعلية قدم فيها المفعول به عناية ، إمعاناً من المتكلم في المراوغة بين الحق والباطل والمساواة بينهما في القدر، فهو دائماً يقدم المبرر سواء كان مفعولاً به أو قيداً مخصصاً .

ويلحظ أن صوت الثعالة غائب في النص لم نسمعه إلا مشتركاً مع الضب في أوله حين قالا للضب أنـ هما جاءا يختصمان عنده . وكأن في هذا إشارة إلى أن صاحب الحق في مثل هذا السياق لا يملك إلا أن يقول ، وكلامه لا يجدي ، في حين صوت الباطل هادىء ساكن؛ لأن صاحبه يفعل ، كما أنه مرتاح إلى اعوجاج القاضي ،ومؤمن بأنه غير مضطر للدفاع عن نفسه فالأمر سيان سواء تكلم أو سكت .

وفي الخطبة البتراء يقول زياد بن أبيه مقرعاً أهل البصرة عامةكبارهم وصغارهم ،حلماءهم وسفهاءهم : « فلم يزل من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً من مكانس الريب . حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض ، هدماً وإحراقاً »(٣٦)

وموضع الشاهد : ثم أطرقوا ورائكم كنوساً من مكانس الرّيب

وأصل الجملة التوليدي :

أطرقوا كنوساً

ف + فا + مفـ

غير المتكلم أراد أن يخصص دلالة « كنوس » التي قد تحمل مطلقةً في المعجم العربي دلالة جمالية وحميدة من « كنس » التى تشير إلى بيت الظباء وبيت العبادة وما يريده المتكلم من اللفظة معنى التكثيف والتغطية في منازل مخفية ، كما أراد أن يعطيها صفة سيئة قبيحة وأضاف القيد المخصص للمفعول به (من مكانس الريب) فهي أماكن ريبـة وشك وموطن ظن بالفاحشة ،ولاشك في أن هذا الاستعمال يقلب الدلالة الدينية والجمالية لمادة "كنس " المعجمية إلى دلالة قبيحة ، وكأنه بذلك يشير إلى تحول الفجور والفسق عندهم إلى دين وعقيدة ، وأماكنها المريبة إلى مكان يتعبدون فيها ، وأي عبادة وأي معبود ؟ إنما طقوس الشيطان حيث هي مكانس "الريب " فالريب هي التي أدت قلب الدلالة عن وجهها المشرق إلى وجه قاتم مشين ، مما يحدث صدمة أسلوبية للمتلقي ، ويجعله أكثر تواصلاً مع الخطيب ، واقتناعاً بشرعية حربه تلك .

أطرقوا كنوساً من مكانس الريب

ف + فا + مفـ + (قيد مخصص)

لكن غارة زياد ليست على السفهاء وحدهم،بل على من ظنوا أنهم الحلماء واكتفوا بأن لم يشاركوا السفهاء فعلهم ، وهذا ليس بكافٍ عند الله ، ولا عند زياد "و اتقوا فتنة لا تصيـبن الذين ظلموا منكم خاصة ". (٣٧)

إذ كان ينبغى للحلماء أن يضربوا على أيدي السفهاء حتى لا يستشري أمرهم ، ولأهمية هذه المسألة لدى الخطيب أضاف القيد (وراءكم) حيث (كمُ) فيها ضمير عائد على الحلماء والمجتمع عامة ، وليزيده عناية واهتماماً قدمه حتى على المفعول الذي هو مناط استقباحه

أطرفوا وراءكم كنوساً من مكانس الرّيب

ف + فا + (قيد مخصص) + (مفـ) + (قيد مخصص)

فهي جملة فعلية تحويلية محولة بزيادة قيدين مخصصين أحدهما للمفعول ، والثاني للفعل ، وقدم الأخير أيضاً عناية وتوكيداً ،إذ يريد أن يلفت نظر الكبار والحلماء إلى مكان قريب منهم ، بل وراءهم حيث الشر إليهم أقرب من قريب ، ولذلك كان تقديم "وراءكم " هدفه تنبيه تلك الفئة من المتمع إلى أنا ليست بمنأى عن شر السفهاء والصغار ، فها قد وصل إليهم ، كما تشعر "وراءكم " بغفلة المخاطبين عن الشر الذي يوشك أن يداهمهم ، فإن ظنوا أن إدارة ظهورهم له وإعراضهم عنه كاف لسلامتهم فقد خاب ظنهم وعمي بصرهم فهو وراءهم لاحق ، وإن تركوه فلن يتركهم ،وهو يقيم مواخيره وراءهم ، وسيظل يطردهم ويتمدد مالم يقفوا وجهاً لوجه لاظهراً لوجه؛ لمقاومته والقضاء عليه.

وفي الخطبة السابقة ذاتـها ترد جملة : " أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ." (٣٨)

والجملة النواة :

تلازم صلة تلازم إضافة

أنتم كمن طرفت الدنيا عينه

(ف + فا + مفـ)

م + (شبه جملة)

وقد نتسائل لماذا تنـزاح العربية عن المألوف في الجملة الاسمية -من كون طرفيها اسمين إلى نمط يكون فيه الخبر اسماً موصولاً يقتضي صلة هي في ذاتـها جملة فعلية لكنها لا تقوم دلالة إلاّ في إطار موصولها معه ؟

أقول إن المتكلم أحياناً يحتاج لأن يشحن جملته بمعنى الثبات الذي يوفره له استخدام

الجملة الاسمية وفي الوقت نفسه يريد أن يشحنها بالحركة ، أو يشحن خبرها بالحركة الذي لا يسوغه إلاّ دخول الفعل في بنيتها ، خاصة حين يميل المتكلم إلى التصوير الفني فإنه يعمد إلى مثل هذا النمط من الجمل التي تكون الجملة النواة فيها اسمية لكنها تتسع وتتشح بالدلالة والحركة من خلال دمج الجملة الفعلية في بعضها . كما أنـها تسمح للأفعال المتلاحقة المترابطة بالتداعي من خلال العطف أو التعداد أو غير ذلك .

وفي الجملة مناط الحديث أراد المتكلم أن يدل على الخبر في الماضي واستمراريته في الحاضر ، واقتضت نواميس العربية تحول الضمير المنفصل (أنتم إلى (واو الجماعة) عند دخول عنصر الكينونة

تلازم جر تلازم صلة تلازم إضافة

تكونون كمن طرفت الدنيا عينه

ع . زمان (م + خـ)

غير أن المتكلم لم يرد مجرد الإخبار ، وإنما أراد المحاجة ، والتوبيخ لمن هذه حالهم فأدخل عنصر الاستفهام الهمزة .

تلازم صلة تلازم إضافة

أتكونون كمن طرفت الدنيا عينه .

؟ ع . زمان (م + خـ) (ف + فا + مفـ)

ثم أراد المتكلم بالعناية ببعض الصلة خاصة وهو المفعول به فيها فقدمه

تلازم جر تلازم صلة تلازم إضافة

أتكونون كمن طرفت عـيـنـه الدنيا

؟ . ع . زمان (م + خـ) (ف + مفـ + فا)

فقد أراد تركيز الاهتمام على الفاعل وهو " طرف " وعلى المفعول به (عينه) في حين أزاح الدنيا بعدها ، وكأنه بذلك يحمل المفعول به مسؤولية انطراف عينه، و هوكناية عن مرض يؤدي إلى ضبابية الرؤية وصعوبتها ،ومع أن الدنياهي الفاعلة إلاّ أن المفعول به يتحمل هذه المسؤوليةومايتبعها وما يترتب عليها من تخبط وقد ساعد هذا التركيب المزدوج للجملة على تداعي الجمل التي اتصف بـها الموصول من أفعال فجاء العطف عليها بالجملة.

تلازم إضافة

وسدّت مسامعه الشهوات .

ف + مفـ + فا

وأيضاً يقدم المتكلم المفعول " مسامعه" على الفاعل " الشهوات " للسبب السابق نفسه فالإنسان ، حليماً وسفيهاً ، كبيراً وصغيراً ، فاعلاً ومفعولاً به هو المسؤول عما آلت إليه الأمور في البصرة من سوء وانتشار للفاحشة ، لأن الدنيا لا تستطيع أن تطرف إلا عيناً زاغ صاحبها إليها ، والشهوات لا تستطيع أن تسد إلا مسامع (بالجمع ، بل بصيغة منتهى الجموع) من وجّهها إلى سماع الباطل والتلذذ بـه ، فتصبح الدنيا والشهوات فاعل ثانوى لا يملك أن يفعل إلا بسلطة من المفعول به .

ثم عطف على الصلة أيضاً صلة أخرى فعليـّة هي :

واختار الفانية على الباقية

ف + فا (ض) + مفـ (قيد مخصص)

ويلحظ في هذه الصلة الأخيرة صدى ما ذهبنا إليه من دلالة، حيث ينـزاح ما كان مفعولاً في السابقتين عن رتبته ووظيفته ليصبح فاعلاً(يختار)فهوالذي اختارالفانية (الدنيا)عن الباقية(الآخرة) ، وتصبح الدنيا التي استغنى بصفتها عنها لفنائها بعد أن كانت فاعلة في الصلة الأولى ، مفعولاً به يقع عليه الفعل الإنساني .

فتصبح الجملة في صورتـها الأخيرة .

تلازم عطف تلازم عطف

تلازم جر تلازم صلة تلازم إضافة تلازم إضافة تلازم جر

أتكونون كمن طـرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات) ، و (اختار الفانية على الباقية)

؟+ع.زمان(م+خـ)(ف + مفـ + فا) (ف + مفـ + فا) (ف + فا + مفـ+ قيد مخصص)

إنّ هذا النمط من الجمل يتيح فرصة لخلق علاقات متراكبة ومتراكمة من الصور والأفعال والتنامي والحركة ، وتبقى النواة فيها هي الأم المُولدة التي تتيح لها هذا الامتداد .

وثمة مواطن في العربية يتقدم فيها المفعول به على فعله وفاعله ، أو الفاعل على فعله ومفعوله أو القيد المخصص المتمم للفعل وجوباً ، ومن ذلك إذا دخلت على الجملة الفعلية " أما " التفصيلية فإن كانت عناية المتكلم بالمفعول به أكثر من الفاعل قدمه ، وإن كانت عنايته بالفاعل أكثر منها في المفعول به قدمه . ولا مناص له من تقديم أحدهما ، ولعل ذلك أن " أما " وظيفتها التفصيل، فلا تدخل أصلاً على الجملة إلا لتفصل الأمر، فتستدعي بالضرورة بعدها دائماً الأهم للمتكلم .

ومن ذلك ما ورد في خطبة شبيب بن شيبة بين يدي أمير المؤمنين فقال : " ألا إنّ لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة : الأسدَ الخادرَ ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر، فأما الأسدُ الخادر فأشبه منه صولته ومضاءه ، وأمّا البحرالزاخِر ، فأشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر ، فأشبه منه نوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر ، فأشبه منه حُسَنَهُ وبهاءه " وردت أربع جمل كلها تقدمت فيها الفاعلون على أفعالهم بعد أما التفصيلية .(٣٩)

فالجملة الأولى أصلها التوليدي :-

تلازم نعت تلازم جر تلازم إضافة تلازم عطف تلازم إضافة

أشبه الأسدُ الخادرُ منه صـولـتـه ومـضاءه

ف + فا (قيد مخصص) + مفـ

ولما أراد الخطيب التفصيل في الشبه وهو الأسد ، وذكر موطن الشبه ، إذ هو موطن الصورة الفنية التي يرسمها قدمه وأدخل عليه " أما "

تلازم نعت تلازم جر تلازم إضافة تلازم عطف تلازم إضافة

أما الأسدُ الخادرُ فأشبه مـنه صولتـ ـ ـ ـه ومضـ ـاءه

ع. تفصيل (فا + ع. ربط (ف) (قيد مخصص) + مفـ

وعلى ذلك تقاس بقية الجمل :

أما البحر الزاخر ، فأشبه منه جوده وعطاءه

أما القمر الباهر ، فأشبه منه نوره وضياءه

أما الربيع الناضر ، فأشبه منه حسنه وباءه

والطريف أن الخطيب جمع لصوره الأربع هذه كل الأدوات الفنية من تركيب نحوي، ومماثلة صوتية ، وسجع لتكون على نسق واحد ، فلا تشذ في عطف أو حركة داخل الكلمة في الجمل الأربع مع الكلمة التي توازيها في أختها ، خلا الشبيه. وكأنه يوحي بأن أمير المؤمنين تتجمع فيه هذه الصفات بالقدر نفسه وإن اختلف الشبيه . والأطرف من هذا أن الخطيب ارتجل خطبته هذه ارتجالاً . فمناسبتها أنه " قيل لبعض الخلفاء : إن شبيب بن شيـبة يستعمل الكلام ويستعد له ، فإن أمرته أن يصعد المنبر ، لرجوت أن يفتضح . قال : فأمر رسولاً فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر . . . " (٤٠) وقال ما قال من البيان والدقة . فكيف لو كان مستعداً للكلام كما ادعى الوشاة ؟ !

ولم أجد مثلاً لتقديم المفعول به على فعله فاعله بعد " أما " التفصلية في الخطب موضوع الدرس. ومثلها في كتاب الله تعالى : ((فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث))حيث قدم المفعول بـهما في الأولين والقيد المخصص المتمم

للفعل في الأخيرة .

ومن المواطن التي قدم فيها القيد المخصص على المفعول به ما ورد في خطبة الحجاج بأهل العراق حين أراد الحج ، قال : " يأهل العراق ، إني أردتُ الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمداً وما كنتم له بأهل . وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله -صلى الله عليه وسلم – في الأنصار ، فإنه أوصى أن يقبل محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ؛ وأنا أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم لقائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي ، تقولون لا أحسن الله له الصحابة.وإني أعجل لكم الجواب،فلا أحسن الله عليكم الخلافة - ثم نزل " . (٤١)

واضح أن الحجاج يعرف وصية رسول الله في الأنصار لكنه يوصي بعكسها في أهل العراق ، لأنـهم عنده أهل فتنة ، وأعداء لبني أمية لا أنصار لهم ، وهو بذلك يحدث مفارقة بين موقفين وفريقين ، لتستدعي في ذهن المتلقي كما في ذهن الخطيب المقارنة والمفاضلة والموازنة ، وليعلم المتلقي أنه إن أراد أن يعامله ولاة الأمر كما عامل _صلى الله عليه وسلم _الأنصار باعتباره قدوة للمسلمين أجمعين ، فعليهم أن يكونوا مثل الأنصار في طاعتهم لولاة الأمر ، فهو يرى أن الخلل في الرعية لا في الراعي ، وأن الرعية هي التي خرجت عن المثال . بل إنه يجهر لهم بسياسته المتعسفة هذه ، ويتنبأ فيما سيقولون في أنفسهم به ، وهو الدعاء عليه بألا يحسن الله له الصحابة في حجه . هذه الخطبة تعكس حالة التحول في العلاقة بين الساسة والرعية .

وأصل هذه الجملة التوليدي :

تلازم جر

أحـسن الله الصـحابة لـه

ف + فا + مفـ + (قيد مخصص)

لكن المتكلم لا يريد الإخبار بهذا وإنما يريد الدعاء بالنفي فأدخل عنصر النفي "لا "

لا أحـسـن الله الصحـابـة لـه

(ف + فا + مف ـ) + (قيد مخصص)

ثم **أراد المتكلم العناية بالمخصص بالدعاء فقدم القيد المرتبط بالضمير العائد عليه**

تلازم جر

لا أحسـ ن الله لـ ـه الصـحابـة

(ف + فا + (قيد مخصص) + مف ـ

فهم يخصونه وحده دون خلق الله بألا يحسن الله له الصحابة .

وبالقدر نفسه يأتي الدعاء المقابل من الحجاج إليهم ، وبالبناء نفسه مع تكرار الجزء الأول من الجملة (لا أحسن الله . . .) بالنفي للفعل والفاعل ، والقيد المخصص يتحول بدل " له"عليكم "، " والصحابة " بـ " الخلافة " ويُشعر القيد " عليكم " بالعنف والتلبس أكثر من " لكم " ، كما تشعر بالشر الذي هو ضدهم ، في حين " لكم " تشعر بالخير لهم .

فهو يرد على ما خصوه به بأن يخصهم وحدهم دون غيرهم بعودة الدعاء عليهم ؛ليكون الجزاء لهم من جنس عملهم وتمنيات قلوبهم له ، ولا يستعمل "لكم " ، بل "عليكم " لأن عليكم فيها معنى الاستعلاء والتلبس ،وذلك أدعى لأن تحيق بهم الدعوة أكثر ، كما يلحظ أنهم استعملوا بحقه ضمير الغائب ، فدعوتهم كانت بظهر الغيب ، أما هو فيدعو عليهم بضمير المخاطبين مجاهراً لهم في دعائه.

فتأتي الجملة الدعائية من الحجاج كالتالي :

لا أحـ سـ ن الله عليـ كـ م الـ خلافة

N(ف + فا + (قيد مخصص) + مف ـ

وهما جملتان متطابقتان بنية لتدلا على المساواة في مقدار البغض ، والنفور ، بين طرفي الخطاب. هو أمر يفعله الحجاج عن إدراك ووعي،أو ليس هو القائل في خطبة أخرى لأهل العراق : " أما والله إني لأحـ مل الشر بحمله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله . . "(٤٢)

الحواشي والتعليقات

(١) عمايرة ،خليل أحمد،في نحو اللغة وتراكيبها ،جدة،دار المعرفة.ط١٤٠٤،١هـ - ١٩٨٤م،ص ٧٩.

(٢) السابق،ص ٨٧.

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ،ت:محمود محمد شاكر،مطبعة المدني ، القاهرة – جدة،١٤١٣ه-١٩٩٢م ،ص ٨١-٨٣.

(٤) السابق ص٣٥.

(٥) السيوطي ،جلال الدين ،همع الهوامع ٢في شرح جمع الجوامع،ت:عبد العال مكرم.الكويت ،دار البحوث العلمية ،١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م،٩/٢ .

(٦) ابن يعيش ،شرح المفصل .بيروت ،عالم الكتب، ٩٢/١.

(٧) سيبويه ،عبدالله بن قنبر،الكتاب .ت:عبد السلام هارون .بيروت عالم الكتب ، ٣٤/٢

(٨) شرح المفصل ٩٢/١

(٩) في نحو اللغة وتراكيبها ٨٨/١ .

(١٠) دلائل الإعجاز ص٤٩.

(١١) السابق ، ص ٩٧ .

(١٢) السابق ، ص ١٣٥ .

(١٣) في نحو اللغة وتراكيبها ، ص ٨٩ .

(١٤) السعدي ، عبد القادر عبد الرحمن،أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية،بغداد،مطبعة الخلود،ط١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م ، ص٣٩ .

(١٥) دلائل الإعجاز ص٨٧.

(١٦) فندريس ، اللغة ،ترجمة الدواخلى القصاص ، طبعة مكتبة الأنجلو ، ص١٩٦.

(١٧) الأندلسي ،ابن عبد ربه،العقد الفريد.دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،ط١٣٨١،٢هـ - ١٩٦٢م، ١٤٤/٤.

(١٨) المبرد ، أبو العباس ، الكامل . ت : محمد أحمد الدّالي . مؤسسة الرسالة ،بيروت.

ط٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ،١٢٤٥/٣ .

(١٩) الجاحظ ،أبو عثمان ، البيان والتبيين، ت:عبد السلام هارون ،دار الجيل،بيروت. ٦١/١ ، ٦٢، وانظر العقد : ١١٠/٤.

(٢٠) البيان ٦٣/١ ، وانظر ٤العقد/١١١.

(٢١) العقد ١٤١/٤.

(٢٢) العقد ١٣٩/٤.

(٢٣) العقد٩٣/٤.

(٢٤) ابن الأنباري ،الإنصاف في مسائل الخلاف ،ت:محمد محيي الدين عبد الحميد.دار الفكر، مسألة (١٨٥) ، ٢ / ٦١٥ ، ٦١٧ .

(٢٥) عابدين ، عبد المجيد ، المدخل الى دراسة النحو العربي عن ضوء اللغات السامية ،القاهرة ، مكتبة الشبكشي ط١ ، ١٩٥١م ، ص٦٣ .

(٢٦) عباس ،محمد فضل ، البلاغة فنونـها وأفنانها ، عمان ، دار الفرقان ،١٩٨٥م ، ص ٧٩ .

(٢٧) الكيلاني ،إيمان "محمد أمين"،القاعدة النحوية بين النظرية والتطبيق من خلال كتابي معاني القرآن للأخفش والفراء في ضوء النظرية التوليدية التحويليةلخليل عمايرة،رسالة ماجستير نوقشت في قسم اللغة العربية ،بجامعة اليرموك ،١٩٩٠م، ص ١١٥ .

(٢٨) البيان ٦٢/٢.

(٢٩) السابق ، الموضع نفسه .

(٣٠) العقد الفريد ١٤٤/٤.

(٣١) البيان ٦٣/٢.

(٣٢) الكتاب ، ص ٣٤.

(٣٣) (الزمر : ٦٦) .

(٣٤) الهمع ١٢/٣.

(٣٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،دار الكتب العربية،ط٣ ١٣٨٧هـ -١٩٧٧م ١٤٦/١ . وانظر :الأندلسي ،أبوحيان .دار الفكر،ط٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م ، البحر المحيط ٢٤/١.

(٣٦) العقد ٤/١٣٦.

(٣٧) البيان ٢/٦٢ ، وانظر العقد : ٤/١١٠ .

(٣٨) (الأنفال:٢٥).

(٣٩) البيان ٢/٦٢ ، والعقد : ٤ /١١. .

(٤٠) العقد ٤/١٣٧.

(٤١) السابق ٤/١٣٦ .

(٤٢) السابق ٤/١١٩.

مفتاح الرموز المستخدمة في البحث

⇦	**تتحول إلى**
Ø	**الموعة الخالية تدل على محذوف من الجملةالتوليدية**
V	**عنصر توكيد**
V	**توكيد حصر**
حـ	
م	**مبتدأ**
خـ	**خبر**
N	**عنصر نفي**
ض	**ضمير**
م	**مبتدأ مقدم للعناية والتوكيد**
خـ	**خبر مقدم للعنايةوالتوكيد**
ف	**فعل**
فا	**فاعل**
فا	**فاعل مقدم للعناية والتوكيد**
مفـ	**مفعول به**
مفـ	**مفعول به مقدم للعنايه والتوكيد**
(قيد مخصص)	**قيد مخصص مقدم للعناية والتوكيد**

الجملة النواة	**الجملة الأم ، التوليدية ، الأصل**
ع. تصير	**عنصر تصيير**
ع.تكثير	**عنصر تكثير**
؟	**عنصر استفهام**
ع.زمان	**عنصر زمان**
ع.تفصيل	**عنصر تفصيل**

المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) ابن الأنباري ،الإنصاف في مسائل الخلاف ،ت:محمد محيي الدين عبد الحميد.دار الفكر.

(٣) ابن يعيش ،شرح المفصل .بيروت ،عالم الكتب، د.ت، د.ط.

(٤) الأندلسي ،أبوحيان ، البحر المحيط.دار الفكر،ط٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

(٥) الأندلسي ،ابن عبد ربه،العقد الفريد.دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،ط١٣٨١،٢هـ - ١٩٦٢م.

(٦) الجاحظ ،أبو عثمان ، البيان والتبيين، ت:عبد السلام هارون ،دار الجيل،بيروت.

(٧) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ،ت:محمود محمد شاكر،مطبعة المدني ، القاهرة – جدة،١٤١٣هـ -١٩٩٢م.

(٨) السعدي ، عبد القادر عبد الرحمن،أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية،بغداد،مطبعة الخلود،ط١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

(٩) سيبويه ،عبدالله بن قنبر،الكتاب .ت:عبد السلام هارون .بيروت عالم الكتب.

(١٠) السيوطي ،جلال الدين ،همع الهوامع ٢في شرح جمع الجوامع،ت:عبد العال مكرم.الكويت ،دار البحوث العلمية ،١٣٩٧هـ -١٩٧٧م.

(١١) عابدين ، عبد الـيد ، المدخل الى دراسة النحو العربي عن ضوء اللغات السامية ،القاهرة ، مكتبة الشبكشي ط١ ، ١٩٥١م.

(١٢) عباس ،محمد فضل ، البلاغة فنونـها وأفنانها ، عمان ، دار الفرقان ،١٩٨٥م.

(١٣) عمايرة ،خليل أحمد،في نحو اللغة وتراكيبها ،جدة،دار المعرفة.ط١'١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

(١٤) فندريس ، اللغة ، ترجمة الدواخلى القصاص ، طبعة مكتبة الأنجلو.

(١٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،دار الكتب العربية،ط٣ ١٣٨٧هـ -١٩٧٧م.

(١٦) الكيلاني ،إيمان "محمد أمين"،القاعدة النحوية بين النظرية والتطبيق من خلال كتابي معاني القرآن للأخفش والفراء في ضوء النظرية التوليدية التحويليةلخليل عمايرة،رسالة ماجستير نوقشت في قسم اللغة العربية ،بجامعة اليرموك ،١٩٩٠م.

(١٧) المبرد ، أبو العباس ، الكامل . ت : محمد أحمد الدّالي . مؤسسة الرسالة ، بيروت. ط٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.